سلسلة مطويات شبكة بينونة

فصبر جميل

الشيخ
د. أحمد بن مبارك بن فتن الكعبي المزروعي

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المؤمن البر، والصلاة والسلام على محمد من صبر وأمر بالصبر، وعلى آله وصحبه ومن واله إلى يوم الحشر، أما بعد:

ففي وقفةٍ جديدة مع هذه النسائم الإيمانية، نقف وقفة مهمة مع قيمة إيمانية مهمة، ألا وهي الصبر.

النفس في هذه الدنيا تتقلب في معتركها، وتسير في هذه الدنيا مدافعة لشهوات تغريها، وتحرص على طاعاتٍ الله فرضها، وهي مع ذلك تقع في شيء من الابتلاءات ومن المكاره التي النفس لا تحبها، فالنفس مطية والصبر زمام هذه المطية تكبح جماحها وترخي لها حتى تسير سير العنق، فهي بين إقدامٍ وإحجام، فالصبر يجعلها تقدم على ما فيه خير ونفع لها، والصبر يجعلها تُحجِم عما فيه ضرر عليها، وهي في هذه الابتلاءات إن لم تعش بروح الصبر؛ فالنفس قد تضجر وتضيق، فمن لا صبر له لا يستطيع أن يعيش في هذه الدنيا عيشة هنية، لذلك يقول عمر بن الخطاب ﷺ: «**أفضل عيشٍ أدركناه بالصبر**» [1]، وقال: «**وجدنا خير عيشنا بالصبر**» [2]، فالإنسان الصابر يعيش عيشة هنيئة.

تَعَزَّ بِحُسنِ الصَبرِ عَن كُلِّ هالِكٍ
فَفي الصَبرِ مَسلاةُ الهُمومِ اللَوازِمِ

كل همٍّ، وكل مصيبة، وكل أمر يُضَيِّق الإنسان؛ فسيجد العبد في الصبر مسلاة له عن تلك الهموم وتلك الابتلاءات.

ومن أهمية الصبر أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الصبر في أكثر من تسعين موضعًا، ورتب عليه الأجور العظيمة، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾

(١) الصبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا (ص: ٢٣).
(٢) الدر المنثور، للسيوطي (١/ ١٦٣).

[القصص: ٥٤]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقد جمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للصابرين ثلاثة أمور وثلاثة خصال، كل واحدةٍ منها خير من الدنيا وما فيها كما قال عبد الله بن الشخير ﷺ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، وقد سبق أن من عنوان سعادة الإنسان أن يكون صابرًا، ولهذا جعل النبي ﷺ الصبر ضياء [٣]، وقال: « واعلم أن النصر مع الصبر» [٤]، وقال: « ومن يتصبر يصبره الله » [٥]، فالإنسان في هذه الحياة يحتاج إلى الصبر حتى ينتصر.

وقد أدرك أئمة الدين أهمية الصبر وذكروا له أوصافًا وحقيقة تجعل الإنسان أكثر تمسكًا بهذه القيمة الإيمانية العظيمة، فيقول علي ﷺ: « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له لا إيمان له » [٦]، ويقول أيضًا علي ﷺ: « الصبر مطية لا تكبو » [٧].

وقال الحسن البصري: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبدٍ كريمٍ عنده» [٨].

وقال ميمون بن مهران: «ما نال أحدٌ شيئًا من جسيم الخير نبيٌ فما دونه إلا بالصبر» [٩].

ويقول عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكان ما انتزع منه الصبر، إلا كان ما عوَّضه خيرًا مما انتزع منه» [١٠].

لذلك قال النّبي ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،

---

(٣) كما في حديث.
(٤) مسند الإمام أحمد (٢٨٤٩).
(٥) صحيح البخاري (١٤٦٩).
(٦) الصبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا (ص: ٢٤).
(٧) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ٢٩٤).
(٨) الصبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا (ص: ٢٧).
(٩) الصبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا (ص: ٢٩).
(١٠) الصبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا (ص: ٣٠).

وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له »[١١].

ولكن من الأمور المهمة في مقام الصبر؛ أن نعرف أن الصبر على ثلاثة أنواع:

(١) صبر على طاعة الله.

(٢) وصبر عن معصية الله.

(٣) وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والإنسان يتقلب بين هذه، بين أمرٍ يجب عليه أن يصبِّر نفسه على فعله، أو عن معصية يجب عليه أن يُصبِّر نفسه عنها حتى لا يقع فيها، وعن مصاب مؤلم يجب عليه أن يصبر عليه.

فيتبين بهذا أن الإنسان يحتاج إلى الصبر في جميع مقامات حياته، فالصبر على طاعة الله تشمل جميع أنواع العبادات؛ صبر على طاعاته في الصلاة في القيام إلى صلاة الفجر، صبر على طاعته في قراءة القرآن، صبر على طاعته في ذكره، في الصيام، في القيام وغيرها من العبادات.

وهنا ملحظ خفي فبعض الناس يصبر على طاعةٍ يهواها أو يميل إليها، ولا يستطيع الصبر على بعض الطاعات؛ لأن نفسه لا تميل إليها، لذلك تجد بعض الناس مثلًا: مصلٍّ، صائم، قائم، ولكنه لا يصبر نفسه على طاعةٍ مثل بر الوالدين، فتجد إنسانًا سمته وهديه طيب، لكنه لا يبر والديه، فما صبَّر نفسه على هذه الطاعة، أو زوج لا يصبر على زوجته في النفقة عليها والإحسان إليها، وكذلك الزوجة، وحتى في تربية الأبناء طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحتاج من المربي الأب أو الأم الصبر، فليس تربية الأبناء كلمة تقال وتنتهي، بل سقيٌ يسقاه ذلك الزرع الذي هو الابن حتى لا يجف، حتى يقوى عوده وتشتد سوقه وترتفع شجرته، وتعطي هذه الشجرة الثمرة النافعة.

ففي جانب طاعة الله لا بد علينا أن نصبر على جميع أنواع طاعة الله، فالواجبة الصبر عليها واجب، والمستحب يستحب

(١١) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

للإنسان أن يصبر نفسه عليها ، وكل ما كان الإنسان أكثر صبرًا كان أكثر طاعةً، لذلك تجد بعض الناس يقرأ صفحة من القرآن ولا يزيد لنفاد صبره، وبعضهم يحضر درسًا أو نصفه ثم يمل ويخرج، يحتاج الأمر إلى مصابرة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وإلى مجاهدة في الصبر.

كذلك معصية الله يجب على الإنسان أن يصبر عنها، فلا يقع فيها من صغائر الذنوب وكبيرها، جميع هذه المعاصي التي حُفَّت بالشهوات يجب عليه أن يصبر نفسه حتى لا يقع، يصبر عن الحرام فيغض بصره، يصبر عن الكلمة الحرام فيكف لسانه، وهكذا في جميع المعاصي والذنوب يصبر عنها فلا يقع فيها، وهنا أيضًا ملحظ مهم وهو أن الإنسان قد يصبر عن المعاصي التي لا تميل نفسه إليها، ولا يصبر عما تميل نفسه إليها وهذا خلل في الصبر، بل لا تظهر حقيقة الصبر إلا فما تميل إليه.

وكذلك الأقدار المؤلمة، يصاب الإنسان بالهموم، والأحزان، والمصائب، وفقد الولد، والمرض، والابتلاءات التي لا تكاد تنفك عن أحد موجود على هذه الأرض، فكلنا مصاب، وكلنا قد يبتلى؛ لأن هذه الدار دار ابتلاء، فلا بد من مطية الصبر.

والصبر قد ضرب الله فيه القصص والأمثال، وبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حال الأنبياء الذين هم أكثر الناس قدرًا وأعظمهم منزلةً، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ابتلاهم، ففي قصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، أصيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بضرر كبير، كان له من الدواب والأنعام والحرث شيءٌ كثير، وأولاد كثير، ومنازل مرضية، فابتُلِيَ في ذلك، كله ذهب الخير الذي عنده، وذهب عنه من آخِره، لم يبق له شيءٌ من ذلك الخير، ثم ابتلي في جسده حتى يقال أنه ابتلي بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر به الله عَزَّوَجَلَّ، حتى عافه جليسه وانفرد في ناحية من البلد، ولم يبقى من الناس أحدٌ

يحنوا عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره، ويقال إنه احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، لاحظ الابتلاء الشديد: مرض، وسنوات طويلة، وابتلاء، لكن الصبر مطية لا تكبوا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤]، فعوضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العوض الأتم والأكبر.

صبرًا على ضيقة الأيام إن لها
فتحًا وما الصبر إلا عند ذوي الأدب
سيفتح الله أبواب العطاء بما
فيه لنفسك راحاتٍ من التعب

الصبر حفظكم الله مع الله جنة، الصبر مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله سعادة، الصبر نصرٌ، الصبر نجاة، فعندما يقول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»[١٢]، أي: أنه نصر في جميع مقامات الحياة، نصر على النفس الأمارة بالسوء، نصر على الشيطان، نصر على الشهوات، نصر على العدو، نصر من عند الله مؤزرًا، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا من الصابرين الشاكرين الذاكرين، وأسأله عَزَّوَجَلَّ أن يمن علينا وعليكم بعافية دائمة وسلامة وأمن وأمان، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

(١٢) مسند الإمام أحمد (٢٨٤٩).